الحجاج في القصة النّبويّة الاجتماعية

أ/تجاني أمينة
د/سهل ليلى
جامعة بسكرة

الملخص :

ترتكز القصة النّبويّة على بعدين؛ بُعد بياني بليغ رفيع المستوى، وبُعد وظائفي يميّزها عن غيرها من القصص يتّضح من خلال التّأثير الذي أحدثته في المجتمع العربي في زمن رسول الله– صلى الله عليه وسلم– الذي كان يسعى إلى تغيير المستمع فكرا وقولا وسلوكا وفق المنهج الرّبّاني . وقد تنوّعت أشكالها ما بين اجتماعيّة وتربويّة وتعليميّة . وتحاول هذه الدّراسة الكشف عن آليّات الحجاج التي وظفها رسول الله – صلى الله عليه وسلم– في القصّة الاجتماعيّة من أجل إقناع المتلقي الكوني وتغييره ؛ لأنّ تأثير قصصه لا يزال مستمرّا إلى يومنا هذا، وذلك لخلود الحديث النّبوي الشّريف المتضمن لهذه القصص .

Abstract :

This study is trying to detect the mechanisms of argumentation which employed by the prophet of Allah in the social story in order to convince the universal recipient and change it ; because the effect of his stories stile continues to nowadays , and that refer to the immortality of the prophetic speech including these stories .

مقدمة

إنّ الخطاب الدّيني بشقّيه القرآن الكريم والحديث النّبوي الشّريف، قد أحدث تغييرا جذريّا في الأمّة العربيّة ، وغيّر مجرى التاريخ وبدّل جغرافيّة العالم في ظرف وجيز. وهذا راجع إلى تبنّيه أسلوب الحجاج من أجل إقناع متلقّيه والتّأثير فيه وتغيير معتقداته وأفكاره ، ومن ثمّة أفعاله وسلوكه .

ويعدّ الخطاب النبوي بما يحويه من أحاديث وقصص ترجمة فعليّة للقرآن الكريم وتطبيقا عمليّا له في الحياة اليوميّة . فهو من جهة ينبوع بيان لتهذيب وجدان الإنسان لأنّه – صلى الله عليه وسلم – أفصح العرب لساناً، وأكملُهم بيانا . وقد صدق الجاحظ في قوله: "لم يَسْمع الناسُ بكلامٍ قَطّ أعمَّ نفعاً، ولا أقصَدَ لفظاً، ولا أعدلَ وزناً، ولا أجملَ مذهباً، ولا أكرَم مطلباً، ولا أحسنَ موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنًى، ولا أبين في فحوَى، من كلامه – صلى الله عليه وسلم – "[1]، ومن جهة أخرى فهو خطاب يتّخذ من الحجاج وسيلة لإقناع المتلقي وتغيير سلوكه وتوجيهه الوجهة التي ارتضاها الله – عز وجل – له .

وبما أنّ القصّة النبوية جزء من هذا الخطاب النبوي الغزير، فهي تتوسّل اللغة لإقناع المتلقي بما ترمي إليه من أهداف ، وهي وإن كانت من الحقول المعرفية القديمة إلا أنّ الدّراسات اللغويّة الحديثة بما فيها الحجاج فتحت لها أفقا جديدة للبحث والكشف عن أسرارها ومكنوناتها.

وعليه فإن هذه الدّراسة تهدف إلى سبر أغوار القصص النّبوية واستكناه دلالاتها واستنطاق بنياتها بمقاربة حجاجيّة تكشف أبعادها الوظائفيّة . وتطرح جملة من التساؤلات : هل حكى النّبي – صلى الله عليه وسلم – هذه القصص الكثيرة والمتنوّعة لمجرّد الإمتاع والتّسلية أم تعدّى ذلك إلى التأثير والإقناع والتغيير ؟ إذا كانت هذه القصص حجاجيّة ، فما هي الآليات التي وظّفها – صلى الله عليه وسلم – لتحقيق ذلك ؟ وما مدى نجاح حجاجيّتها؟

أوّلا : القصة النّبويّة الاجتماعيّة

1– تعريف القصّة :

أ– لغة : جاء في مقاييس اللغة لابن فارس :" القاف والصاد : أصل صحيح يدل على تتبّع الشّيء من ذلك قولهم : قَصَّ الشّيء يَقُصُّه وقِصَصًا بمعنى تتبّعه لأمر وغاية ينتهي إليها من ذلك التّتبّع . ومن ذلك قولهم: اقتصصت الأثر إذا تتبّعته "[2]. ومنه قوله تعالى:﴿وقالت

لأخته قصّيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون﴾[3]أي تتبّعي أثره لتعلمي خبره . وقد يأتي القصّ " بمعنى البيان، ومنه قوله سبحانه وتعالى في قصّة يوسف –عليه السّلام– مع إخوته: ﴿نحن نقصّ عليك أحسن القصص﴾[4]أي : نبيّن لك أحسن البيان "[5] .

وعليه فالقصّة في اللغة هي الأثر أو الخبر الذي يتّبعه المستمع والمتلقي ليوجّهه في حياته فيسير على هديها ومنوالها ليصل إلى هدفه المنشود .

ب – اصطلاحا :

القصة هي حكاية نثرية هادفة ذات حبكة مترابطة، مستوحاة من الخيال أو الواقع تعزز الجوانب الإيجابية وتخلو من الخرافات والمعاني السلبية. [6]وهي أيضا "فن أدبي إنساني تتّخذ من النّثر أسلوبا لها، تدور حول أحداث معيّنة يقوم بها أشخاص في زمان ما ، ومكان ما في بناء فنّي متكامل ، هادف نحو بناء الشّخصيّة المتكاملة "[7]. وتعدّ القصّة "من الأنواع الأدبيّة البارعة التي يمكن للقاص بها أن يقرّر المبادئ ويمكّن للأهداف"[8]. فهي ترسم خطوات الحياة الإنسانيّة من كل الجوانب ليتتبّعها المتلقي فيصل إلى برّ الأمان .

2– القصة النبوية:

هي القصة التي يحكيها النبي – صلى الله عليه وسلم – عن نفسه أو عن الأمم السابقة أو المواقف الغيبية التي تندرج تحت باب القصص النبوي، وهي تهدف إلى بناء القيم وترسيخ مبادئ الإسلام في النفوس وصياغة الشخصية المسلمة على نحو متميز وفق المحددات القرآنية. فهي تقدّم "مجموعة أحداث مرتّبة ترتيبا سببيّا ، تدور حول مواضيع إنسانيّة شتّى، جوهرها تصوير الحياة بما فيها من نماذج بشريّة، وتحليل أحاسيسها ومعرفة نفسيّاتها وتشريحها "[9].

إنّ القصّة النّبويّة ترسم منهجا واضحا ، وطريقا سويّا ناجحا لصناعة الإنسان وبنائه وفق المبادئ الإلهيّة للمنهج الرّبّاني المسطّر في القرآن الكريم ؛ وذلك للوصول إلى الأهداف الكبرى التي خلق من أجلها الإنسان: الخلافة ، العبادة ، العمارة . ولهذا لم يذكر النّبي صلى الله عليه وسلم – شخصيّات نمطيّة اصطناعيّة ذات وجهة محدّدة ، بل أبطال القصص تنتمي إلى الواقع الوجودي بما فيه من خير وشر، وحب وكره، وطمع وحرص... وفي أغلب الأحيان تضع المتلقي أمام نقيضين ليقارن ويختار الأفضل ليتّبعه كنموذج بشري ناجح يسير على خطاه ويتتبّع أثره حتى ينجح في حياته مثله ويقود مجتمعه لأنّ النّجاح أوّل معيار

للقيادة . وعليه فالقصّة النّبويّة ترسم خطوات الأمّة القائدة ، والمؤمن النّاجح ، والمجتمع المثالي المتكافل اجتماعيّا ، والمتعاون اقتصاديّا والمتطوّر علميّا .

3- القصّة الاجتماعيّة :

القصّة النّبويّة الاجتماعيّة هي القصّة التي تصوّر الحياة الاجتماعيّة بكل أبعادها السّيّئة والحسنة ، محاولة تسييرها وتحويرها نحو الأفضل دائما . ومن أمثلة ذلك : قصّة الغلام وأصحاب الأخدود، قصّة جريج مع البغي، قصّة الكفل، قصّة أصحاب الغار والصّخرة ...

ثانيا : الحجاج

1- لغة :

يشير ابن منظور في معجمه لسان العرب إلى الحجاج بقوله: "الحُجَّة هي البرهان وقيل الحُجَّة هي ما دوفع به الخصم ...، وحَاجَّهُ مَحَاجَّة وحِجَاجًا نازعه الحجّة ...، وجمع الحُجَّة: حُجَجٌ وحِجَاجٌ، وحَجَّه يَحُجُّه حَجًّا غلبه حجّته وفي الحديث : فحجّ آدم موسى أي غلبه بالحجّة "[10].

الحجاج هو تحاور مع الآخر سواء أكان هناك اختلاف في الرّأي أم لا ، ومحاولة إقناعه والتّأثير فيه بالحجّة الدّامغة . فهو يقوم " على أساس التخاطب بين المتكلم والمستمع اللذين يفترض فيهما أن يتحاجّا في أمر يستلزم دليلا أو حجّة له أو عليه "[11].

2- اصطلاحا :

يعدّ الحجاج مفهوما عائما ويتميّز بالانسيابيّة ، حيث نجد تباينا واضحا في تعريفاته بين العلماء وذلك راجع لزاوية النّظر ونوعيّة الخطاب(قانوني، سياسي، أدبي، علمي ...) فكل واحد قدّم تعريفا حسب منظوره المعرفي ومرجعيّته الفكريّة .

أ- نظرية البلاغة الجديدة عند (برلمان وتتيكا) :

يعرّف (برلمان وتتيكا) الحجاج بأنّه "جملة الأساليب التي تضطلع في الخطاب بوظيفة حمل المتلقّي على الإقناع بما نعرضه عليه ، أو الزّيادة في حجم هذا الإقناع لغاية أساسيّة هي الفعل في المتلقي على نحو يدفعه إلى العمل أو يهيّئه للقيام بالعمل "[12]. فوظيفة الحجاج وغايته هو جعل العقول تذعن لما يطرح عليها من أفكار وآراء ، أو الزيادة في درجة الإذعان ما يؤثر على المتلقي تأثيرا قويّا يدفعه للقيام بالعمل المطلوب (سواء من حيث إنجازه أو الإمساك عنه) أو على الأقل يهيّئه لذلك العمل في اللحظة المناسبة .

ب - نظريّة الحجاج في اللغة عند (ديكرو وأنسكومبر):

تهدف نظرية الحجاج اللغوي أو اللساني التي وضعها كل من أنسكومبر وأزوالد ديكرو إلى دراسة الجوانب الحجاجية في اللغة ووصفها انطلاقا من فرضية محورية ألا وهي : "أننا نتكلم عامة بقصد التّأثير". فاللغة تحمل وظيفة حجاجية في طياتها، وبصفة ذاتية وجوهرية تتجلى في بنية الأقوال ذاتها، صوتيا، وصرفيا، وتركيبيا، ودلاليا. وهذا يعني أنّ الحجاج في اللغة يُعنى بدراسة كيفية اشتغال الأقوال داخل خطاب ما ، وذلك برصد تسلسلها وتواليها داخل الخطاب بصورة استنتاجية. ويعني هذا ربط القول دائما بمقصديته التداولية والسياقية والمقامية .

ومن هنا فهدف المتكلم ليس إبراز قوّته الاستدلاليّة واللغويّة أو إفهام المتلقي فقط بل "غايته القصوى إقناع المتلقي بما يحمله من أفكار وما يعرضه من مواقف أو إغرائه بهذه الأفكار وتلك المواقف ليُحْدِث في نهاية المطاف أثرا واضحا في المتلقي لا من حيث أفكاره فحسب ، بل من حيث مواقفه وما قد يكون له من سلوك واقعي ملموس "[13].

ج – نظريّة المساءلة لميشيل مايير :

ارتبطت هذه النّظريّة بـ "دراسة العلاقة القائمة بين ظاهر الكلام وضمنيّه "[14]، أي أنّه يوجد في معنى الجملة الظاهر شارات حجاجيّة تؤدّي إلى ظهوره الضّمني في ضوء ما يمليه المقام، وتلوح بنتيجة ما، تكون مقنعة أو غير مقنعة[15]. وعليه فمفهوم الحجاج في ضوء نظريّة المساءلة يرتكز على اعتبار الحجّة "جوابا أو وجهة نظر يجاب بها عن سؤال مقدّر يستنتجه المتلقي ضمنيّا من ذلك الجواب ويكون ذلك بطبيعة الحال في ضوء المقام وبوحي منه" [16] فالحجج الصّريحة في خطاب ما تكشف للمتلقي عن أسئلة ضمنيّة يستنتجها مستعينا بما يقدّمه المقام من معطيات. فظاهر الكلام هو الجواب وضمنيّه هو السّؤال .

ثالثا : آليّات الحجاج في القصّة النّبويّة الاجتماعيّة

إنّ اللغة ليست أداة للتّعبير عن المشاعر والأحاسيس، وعن الحاجات الخارجيّة فحسب، بل لها وظيفة تتجاوز "كونها وسيلة تواصل إلى وسيلة تأثير في العالم والسّلوك، ويصير الكلام ذا قوّة بلاغيّة كامنة فيه تظهر من خلال الآثار والنّتائج المترتّبة "[17]. فمن خلال اللغة نؤثّر في الآخر وبالتالي نغيّر العالم . ومن هنا يجب أن لا ننظر للغة من جانبها الجمالي فحسب ، بل نركّز على جانبها التّأثيري لِمَا له من أهمّيّة في حياة الفرد والمجتمع. وهذا الفعل التّأثيري للغة يتجلى من خلال مختلف الصّيغ اللغويّة أبرزها أفعال الكلام التي تمارس وظيفة الإقناع من خلال قوّتها الإنجازيّة .

1- أفعال الكلام :

غيّرت نظريّة أفعال الكلام النظرة التقليديّة للغة المتوقّفة عند حدّ الوصف والإبلاغ والإفهام ، وتعدّتها إلى اعتبارها " قوّة فاعلة في الواقع ومؤثّرة فيه، ألغت الحدود القائمة بين الكلام والفعل"[18]. فأيّ معلومة حسب (باختين) تقدم لشخص ما مثارة بواسطة شيء ما وتسعى إلى تحقيق هدف ما ، فهي حلقة ضمن سلسلة التبادل الكلامي الدّائر في فلك الحياة العاديّة[19]. فالفعل الكلامي من شأنه "إحداث تغيير أو موقع للمتكلمين ، بحيث يتوقّف فك شفرته على إدراك المتلقي للطابع القصدي لفعل المتكلم "[20] .

وقد وظّف النّبي – صلى الله عليه وسلم – الأفعال الكلاميّة في قصصه بشكل كبير ، وقد تنوّعت ما بين توجيهيّات وإخباريّات والتزاميّات وهنا سوف يتم عرض بعضها من خلال الكشف عن الدور الذي تؤدّيه في إحداث الإقناع والتّأثير.

أ – التّوجيهيّات :

يعدّ الاستفهام من الآليّات التّوجيهيّة ؛ بوصفها توجّه المرسل إليه إلى ضرورة الإجابة عنها ، فيستعملها المرسل للسّيطرة على مجريات الأحداث، والسّيطرة على ذهن المرسل إليه وتسيير الخطاب تجاه ما يريده المرسل، وتعدّ الأسئلة المغلقة من أهم الأدوات اللغويّة لاستراتيجيّة التّوجيه[21] . وقد استعمل النّبي – صلى الله عليه وسلم – هذه الاستراتيجيّة التّوجيهيّة ، حيث وظف الاستفهام في قصصه ومن ذلك :

قوله – صلى الله عليه وسلم – :" **هل تدرون أول من يدخل الجنّة من خلق الله ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم . قال: أول من يدخل الجنّة من خلق الله الفقراء والمهاجرون ...**"[22]

فالنبي – صلى الله عليه وسلم– يدرك أنّ هذه الأسئلة ليست استفهاما عن مجهول لأنّه لا يجهل شيئا من هذه المعارف ، بل هي "حجج باعتبار قصد المرسل لا باعتبار الصّياغة والمعنى الحرفي فقط "[23].

فقصْده – صلى الله عليه وسلم – أن يبلور صحابته خاصّة والمسلمون عامّة الإجابة في عمل فعلي يتمثّل في الرّضا بالقليل ، والقناعة بما في اليد ، وترك الطمع والحرص وحب الدّنيا ، وعدم التطلع إلى ما في يد الغير ، والابتعاد عن الغنى بطرق غير مشروعة . وكذلك بالهجرة إلى الله عزّ وجل فهو – صلى الله عليه وسلم – يجيب عن سؤال ضمني للمتلقي مفاده : كيف أكون أول من يدخل الجنّة ؟ فكانت إجابته – صلى الله عليه وسلم – توجيه لتحقيق مراد المتلقي من خلال إنجاز أفعال حقيقية في الحياة الدّنيا .

وكذلك قوله – صلى الله عليه وسلم – : " **هل رأى أحد منكم رؤيا ؟ قلنا :لا . قال : ولكنّي رأيت الليلة رجلين أتياني** ... "[24] فالنبي – صلى الله عليه وسلم – أجاب مباشرة لأنّ قصده من الاستفهام ليس تلقي الإجابة ، بل أن تأتي الإجابة باستجابة فعليّة ، فالاستفهام هنا ليس حقيقيّا بل هو توجيه . وقد صنّف (باخ) الأسئلة ضمن الأفعال التّوجيهيّة التي "تعبّر عن توجّه المرسل إلى أن ينفّذ المرسل إليه بعض الأفعال في المستقبل"[25]، فلم يكن قصد النّبي – صلى الله عليه وسلم – سرد القصّة للإمتاع والتّسلية ولكنّه عمد إلى التّوجيه من خلالها لأنّه معلم الأمّة ومرشدها إلى ما فيه خيرها وصلاحها . فهو من خلال هذه الأسئلة والأجوبة يوجّه المسلم إلى تنفيذ ما طلبه منه على وجه السرعة، لأنّ الاستفهام فعل حجاجي بالقصد المضمر فيه وفق ما يقتضيه السّياق[26].

وقد يكون السّؤال خارجيّا أي من طرف أحد الصّحابة وليس من عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وهذا النّوع من الأسئلة " يؤدّي وظيفة حيويّة في تهيئة ذهن السّامع أو القارئ، وتوجيهه إلى الارتباط بالقصّة القادمة؛ بما يثيره السّؤال في نفسه من معلومات غير محدّدة، أو قضيّة مبهمة؛ حيث تبرز عنده مشكلة لا يجد حلها إلا في الجواب عن هذا السّؤال، وهو القصّة نفسها "[27].

ومن أمثلة ذلك : سؤال عائشة – رضي الله عنها – للنّبي – صلى الله عليه وسلم – : "**هل أتى عليك يوم كان أشدّ ممّا لقيت منهم يوم العقبة** " فردّ – عليه الصلاة والسّلام – : "**لقيت من قومك ما لقيت... وكان أشدّ ما لقيت منهم يوم العقبة** .."[28] فإجابة النّبي – صلى الله عليه وسلم – وإن كانت ردّا على سؤال ظاهر، فهي أيضا تجيب على سؤال ضمني للمتلقي مفاده (ماذا حدث يوم العقبة ؟ وكيف كان تصرّف النّبي –صلى الله عليه وسلم– مع قومه في هذا الموقف ؟ وكيف أتعامل مع غيري إن أساء لي؟) فالاستفهام هنا توجيه للمسلم لممارسة خلق التّسامح والعفو مع الآخر لأنّ النّبي – صلى الله عليه وسلم – لم يقبل دعوة ملك الجبال، ولكنه عفا عن قومه وسامحهم . فالاستفهام يبعث في النّص "حياة وحركة، ويمنحه أسباب القدرة على الإقناع والإمتاع ، فيستهوي المستمعين ويجعلهم أكثر تفاعلا مع الهدف المنشود "[29] .

إنّ الفعل الكلامي التّوجيهي في القصص النّبوي كان ذا طاقة حجاجيّة فاعلة ساندت النّبي – صلى الله عليه وسلم – في إقناع المتلقي بـ " التّخلي عن صور الانحراف والتّحلي بأساليب الفطرة من عقل وحق"[30].

ب – الإخباريات :

إنّ توجيه المتلقي وجهة معيّنة يستلزم أوّلا وقبل كل شيء إخباره بالأمر الذي يجهله وإشراكه في صميم القضيّة المعبّر عنها. لهذا فإنّ الإخباريّات تنسجم مع "منطق التّلقّي حيث تقتضي إقامة الحجّة على المنكر أن يعرف أوّلا، وهنا يتحقّق قانون الإفادة ، الوسيلة المنطقيّة "[31] . إذ لابدّ من معطيات إخباريّة يتوسّل بها المتلقي لضمان إنجاز الفعل .

ففي قوله : " ... **إنّ الله قد غفر للكفل** "[32]. وقوله أيضا : " **غفر لامرأة مومسة** ... "[33] يوجّه النّبي –صلى الله عليه وسلم – المتلقي إلى أن يرحم الحيوان كما في قصة المومس، وأن يتصدّق بماله لله – عز وجل – ولا يستغل ضعف المحتاجين وخاصّة النّساء كما في قصة الكفل . ولضمان إنجاز هذه الأفعال قدّم معطيات إخباريّة لأشخاص معيّنين في أزمنة وأمكنة مختلفة وذلك لـ " تثبيت الحجّة بطريقة تفيد تقرير الحقائق "[34] . لأنّ القصص النبويّة حقائق واقعية ثابتة حدثت ، وكل من نَهَجَ نَهْجَها ، فإنّه سيحصل له ما حصل لأصحابها . وقد تسعى الإخباريّات إلى"الإفهام وتوضيح بعض الظّواهر ضمنيّة كانت أم تصريحيّة "[35] أو إلى الوصف كذلك ، ففي قصّة جريج يقول النّبي – صلى الله عليه وسلم –: "**كان من بني إسرائيل رجل عابد يقال له جريج...**"[36] فعبوديّته لله – عز وجل – على أكمل وجه جعلته يتخلص من ظلم المجتمع له المتمثل في اتّهامه بالزّنا زورا ، وإنجابه لطفل غير شرعي ؛ لأنّه تعالى يدافع عن عباده المؤمنين ، فكلام الصبي وهو في المهد وتبرئته لجريج دفاع من الله – عز وجل – لعبده المؤمن . فالوصف هنا "يومئ إلى الفعل المبتغى والسّلوك المرجوّ لتحقيق الهدف "[37]. أي يغري المتلقي بإنجاز الفعل المقصود وهو العبوديّة الحقيقيّة لله تعالى ، وذلك لضمان نجاته من كل أذى في الدنيا لأنّه قد يتعرّض لنفس الموقف .

وفي قصّة الملك والغلام يقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم –:" **كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر...فبعث إليه غلاما يعلمه السّحر، فكان في طريقه إذا سلك راهب ، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه...**"[38] هنا يصف النّبي – صلى الله عليه وسلم – الغلام وعلاقته بالمجتمع ؛ فإيمانه بالله – عز وجل – لم يبق رهين قلبه بل جسّده تطبيقيّا في واقعه الوجودي من خلال خدمته للآخرين (قتله للدّابّة ، الدّعاء للمرضى بالشّفاء ...) وتأثيره في غيره إلى درجة إيمان قومه بسببه ، فعن طريق وصف هذه الصّور استطاع النّبي – صلى الله عليه وسلم – أن يجعل الأفعال الكلاميّة الإخباريّة "ذات قوّة إيحائيّة وإغرائيّة ، وفعّالة في رسم المشهد الذي يوقظ الإحساس وينبّه الهمم "[39] . ويشحذها لإنجاز هذه الأفعال .

ج – الالتزاميات

إنّ توجيه السّلوك وجهة معيّنة يتطلب التزاما ووعدا من المتكلم حتى يكون الإقناع أسهل والتّأثير أكبر والاستجابة أسرع . وهي تعني إلزام المتكلم نفسه بإنجاز فعل مستقبلي ، أي يلتزم "بفعل شيء تجاه المخاطَب طوعا، وتمثّله أفعال الوعد والوعيد والضّمان والإنذار"[40] وهي أفعال تتّجه نحو المتكلم . وقد وردت الأفعال الالتزاميّة في القصّة الاجتماعيّة غير مباشرة لأنّ النّبي – صلى الله عليه وسلم – لم يلزم نفسه بإنجاز أفعال الوعد والوعيد بل يَعِد المتلقي بأنّ الله سبحانه وتعالى هو المنجز وعده .

وقد جاءت هذه الأفعال على شكل مدح للفاعل أو عقاب له أو إظهار العاقبة والجزاء في الأخير "وهذه الأمور دالة على طلب الفعل في الأمور المحمودة وطلب التّرك في الأمور المذمومة "[41]. فهي ذات طاقة حجاجيّة تساند المتكلم لتحقيق هدفه، يقول (أوستين): "يجوز إيقاع التّهديد أو التّخويف ... في الحالات التي يمكن فيها أن نحثّ الآخر أو نقنعه أو نجعله يطيع أو يعتقد في أمر ما "[42].

ومن أمثلة ذلك: قصة المسؤوليّة والجزاء "... **فمرّا بي على رجل ، ورجل قائم على رأسه كلوب من حديد فيدخله في شدقيه حتى يبلغ قفاه...فإذا رجل مستلق على قفاه ورجل قائم بيده فهر أو صخرة فيشدخ بها رأسه...**"[43]

فهذه العقوبة تنفّر المتلقّي من هذا الفعل خوفا من وقوعها ، وتجعله يغيّر سلوكه فيتوقف عن الكذب لأن الرجل الأوّل كان كذّابا ، ويحاول العمل بالقرآن الكريم وتجسيده في حياته لأنّ الثاني كان يعمل بغير ما يعلم ، وهذا التغيير في السلوك الدّائم هو مراد النّبي – صلى الله عليه وسلم – .

وفي قوله : " **يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ، ويمدّ له في جسمه ستون ذراعا ، ويبيض وجهه ويجعل على رأسه تاجا من لؤلؤ** ..."[44]هذا الوعد يغري المتلقي بالفعل ، بل يدفعه إليه دفعا قويّا طمعا في نيله لأنّ وصف الثّواب يثير النّفوس والقلوب ، وتخيُّله يثير العقول ، فهو إذن دافع قوي ومحرّض شديد لإنجاز هذا الفعل .

إنّ الوعد والوعيد "يهدف إلى الإصلاح وإيقاظ العقول ، وله مقاصد تتمثل في التّأثير على أفكار المتلقّي وأفعاله وجعله يخضع لأوامر الله ونواهيه "[45]. وقد وظفه النّبي – صلى الله عليه وسلم – عن قصد ووعي كبير؛ لأن الوعد يدفع بالمتلقي للقيام بالفعل طمعا في الفوز به ، والوعيد كذلك يدفع بالمتلقي لاجتناب الفعل خوفا منه وقيام المخاطَب بالفعل المحمود

واجتناب الفعل السّيء المذموم يعني تغيير سلوكه للأفضل والأحسن ، وهذا هو المراد والهدف الذي يسعى إليه النّبي – صلى الله عليه وسلم– دائما.

من خلال ما سبق يمكن القول إنّ الأفعال الكلاميّة في هذه القصص النّبويّة قد أدّت تغييرا واضحا في النّفوس والعقول والقلوب في زمنه – صلى الله عليه وسلم – وذلك راجع إلى إنجاز الفعل حال إيقاع الكلام ، وهذا هو هدف رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تنشئة الأفراد تنشئة روحيّة ، وبناء الشخصيّة الإسلاميّة الحقيقيّة ، وتكريس الانتماء الدّيني فالإنسان " كيان ووجود قابل لأن يُصطنع ويُبنى لبنة لبنة ، وجزءا جزءا . وكما ينمو جسده ذاتيّا ، فإنّ روحه قابلة للسّمو إن هو تعهّدها بالرّعاية والسّقاية شأنها شأن الجسد سواء بسواء"[46] .

ويبقى الفعل التّأثيري النّاتج عن هذه القصص باق خالد إلى غاية فناء البشريّة، لأنّ للفعل الكلامي قدرة على إنتاج آثار آنيّة ، وقد تتجاوز اللحظة التي قيل فيها ، ومعنى هذا أنّ إنجاز هذه الأفعال الكلاميّة في أي زمان أو مكان سيؤدّي حتما إلى التغيير المنشود ، وما أحوجنا إلى إنجازها في هذا الزّمن .

2– التّمثيل :

يعدّ التّمثيل أحد الوسائل البلاغيّة التي يتوسّل بها المتكلم للوصول إلى أهدافه الحجاجيّة لما له من قدرة على الإقناع من خلال الفعل بجماله والتّأثير في المتلقي بسحره . حيث يقول السّيوطي: " فبحسن الألفاظ واختلافها على المعنى الواحد ترصّع المعاني في القلوب، وتلتصق بالصّدور، ويزيد حسنه وحلاوته وطلاوته بضرب الأمثلة والتّشبيهات المجازيّة"[47] كما أنه من وجهة نظر التّربويّين شحذ لهمّة المتلقي واستنهاض لعقله، ودفع له إلى التّفكير والتّأمل فيما بين الصّورتين المعقودتين من شبه، وتدريب له على التّفكير السّليم بربط الأسباب بمسبّباتها والنتائج بمقدّماتها .

وقد وظفه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في قصصه، من ذلك قوله: "**مثل القائم على حدود الله والمدهن فيها كمثل قوم استهموا على سفينة في البحر فأصاب بعضهم أعلاها ، وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها يصعدون فيستقون الماء فيصبّون على الذين في أعلاها فقال الذين في أعلاها: لا ندعكم تصعدون فتؤذونا ، فقال الذين في أسفلها: فإنّا ننقبها من أسفلها فنستقي، فإن أخذوا على أيديهم فمنعوهم نجوا جميعا، وإن تركوهم غرقوا جميعا**"[48] .

هذا التّشبيه استدعاه النّبي لتقريب المراد للعقل وتصويره بصورة المحسوس؛ إذ شبّه الأمر المعقول المجرّد بالمحسوس، فرسم صورة دقيقة واضحة للمتلقي تتمثل في السّفينة التي تقاسمها نوعان من البشر: مصلح ومفسد . وحين أراد المفسد إذاية نفسه والآخرين تصدّى له المصلح ومنعه من ذلك حتى ينجوا جميعا . وهذه الصّورة تبيّن حقيقة الدّاعي إلى الله – عزّ وجل – والقائم على حدوده ، والمدهن فيها ، فعلى الأوّل الأخذ بيد الثّاني حتى لا تغرق سفينة الحياة الإنسانيّة ويهلك المجتمع ، ويفسد أبناؤه بالوقوع في مستنقع الرّذيلة .

وتصوير الأمر بهذه الصّورة الحسّية البديعة يترك في نفس السّامع أثرا حيّا يدرك به أهمّيّة الإصلاح في المجتمع ، والشّعور بالمسؤوليّة ، وتجنّب اللامبالاة التي تؤدّي إلى الهلاك عاجلا أو آجلا . وقد قدّم النّبي – صلى الله عليه وسلم – هذه الصّورة الجميلة لتحريك إحساس المخاطَب ولإيقاظ عقله باستحضار صورة غرق السّفينة كلما رأى فسادا في مجتمعه ، فيحاول تغييره وهذا ما يؤدّي إلى تغيير المجتمع بأكمله.

إنّ ضَرْب النّبي– صلى الله عليه وسلم – للمَثَل كان عن قصد ووعي تام ، الغرض منه "تشبيه الخفي بالجلي والغائب بالشاهد "[49] لما له من وقع وتأثير قويّ في نفس المتلقي ، بل إن ضَرْبه أدعى للقيام بالفعل وتغيير السّلوك على حسب مراد المتكلم .

3– القياس :

القياس من الآليّات المنطقيّة والتّقنيات العقليّة التي تؤسّس بنية الحجاج في الخطاب أي من "جملة الأساليب التي تعتمد قوانين المنطق والتي تؤدّي إن اعتمدناها في الخطاب إلى إقناع المتلقي بما طُرح عليه من أفكار وما عرض عليه من آراء "[50] . فهو يمثل بنية أساسيّة في كل خطاب حجاجي، لِمَا له من تأثير واضح في يقظة النّفوس وتحقيق الإفهام ، نظرا للتّرابط الدّلالي والتّعالق المنطقي الموجود بين مقدّماته للوصول إلى نتائج . وهو ثلاث أنواع : قياس متكامل ، قياس مضمر ، قياس متدرّج .

وقد وظفه النّبي – صلى الله عليه وسلم – في قصصه، من ذلك قوله: " **غفر لامرأة مومسة** ..."[51] فهذا قياس مضمر؛ أضمرت مقدّماته وذكرت نتيجته ، ويمكن توضيحه كما يلي :

– **المقدّمة الكبرى** (مضمرة) : كل راحم مغفور له .

– **المقدّمة الصغرى** (مضمرة) : المومسة رحمت الكلب .

– **النّتيجة** (مذكورة) : غفر الله للمومسة .

وهذه النّتيجة تدفع المتلقي لتبنّي هذا السلوك وممارسته في حياته ، فيرحم كل من في الأرض (إنسان، حيوان) حتى يضمن المغفرة من الله – تعالى – وهذا هو مراد النّبي – صلى الله عليه وسلم – تغيير سلوك المتلقي دوما إلى الأفضل .

وخلاصة القول إنّ النّبي – صلى الله عليه وسلم – زاوج بين أساليب الإقناع وأساليب الإمتاع في قصصه، حتى تكون أقدر على التّأثير في المخاطَب وتوجيه سلوكه. فقد اجتمع فيها قصد التّوجيه بقصد التّأثير والتّقويم الأخلاقي المقترن بالعمل، فهو لم يكتف بالقص والتسلية فقط، بل اعتمد على الوسائل اللغويّة والبلاغيّة ذات التّأثير العالي، واستخدم الأقيسة المنطقيّة أيضا؛ لأنّها وسيلة ناجحة لتحقيق الإقناع كونها توحي بنوع من الاطمئنان في النّتائج لسلوكها طريقة منطقيّة في التقديم والاستنتاج. وذلك كله من أجل توجيه سلوك المتلقي في الحياة العمليّة وتخليق الحياة الفرديّة والجماعيّة ؛ بتجسيد الأخلاق في السلوكيّات اليوميّة للأفراد .

إنّ هذه القصص تتجاوز الزّمان والمكان، فهي لا تقتصر على زمنه– صلى الله عليه وسلم– فقط بل تتعدّاه ؛ فهي تخاطب المتلقي الكوني ، فهو من خلال قصّها لصحابته أراد تبليغها وتوصيلها إلى كل المتلقين والتأثير فيهم وتغيير سلوكهم بما يضمن لهم السّعادة في الدّنيا والآخرة . وهذا ما يدفعنا إلى الاهتمام بهذه القصص ونشرها عن طريق تمثيلها ، وذلك لتحقيق التّغيير الذي حققه النّبي – صلى الله عليه وسلم – من جهة ، وللتّصدّي للثقافات الغربية الهدّامة الواردة إلينا من جهة أخرى .

الهوامش:

[1] الجاحظ ، البيان والتبيين ، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ط5، 1985 ، ج 2 ، ص 17 .

[2] ابن فارس ، مقاييس اللغة ، تح: عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، ط1، 1991 ، م5، ص 11، مادة(قصص) .

[3] سورة القصص ، الآية .11

[4] سورة يوسف ، الآية 3 .

[5] الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ، ط3، 1978 ، ج2 ، ص311

[6] ينظر: وليد رفيق العياصرة ، التربية الإسلامية واستراتيجياتها العملية ، دار المسيرة ، الأردن ، ط1 ، 2010 ، ص 571 .

[7] محمد عبد الرؤوف ، أدب الأطفال وبناء الشّخصيّة (منظور تربوي إسلامي) ، دار العلم، دبي، ط2 ،1997، ص .112

[8] كمال عز الدين، الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، دار اقرأ ، السعودية، د.ط، دت، ص.459

[9] مأمون فريز جرار، خصائص القصّة الإسلامية، دار المنارة ،جدة، السعودية، ط1، 1988، ص113 .

[10] ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت ، لبنان ، ط2، 1997 ، م2 ، ص 28، مادة (حجج).

[11] رضوان الرقبي ، الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله،مجلة عالم الفكر،ع 2، م40، أكتوبر، ديسمبر، 2011 ، ص 71 .

[12] برلمان وتتيكا ، مصنف في الحجاج، الخطابة الجديدة، المطابع الجامعية ، ليون،فرنسا،1981 ،ج1, ص 92 نقلا عن:سامية الدريدي الحجاج في الشعر القديم من الجاهلية إلى القرن الثالث الهجري، عالم الكتب الحديث ، الأردن ، ط 1 ، 2007 ، ص 21 .

[13] سامية الدريدي ، الحجاج في الشعر القديم من الجاهلية إلى القرن الثالث هجري، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1 ، 2007 , ص 35 .

[14] أحمد أتزكي، الحجاج في المناظرة، مقاربة حجاجية لمناظرة أبي سعيد السيرافي لمتّى بن يونس، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية محكمة في الخطابة الجديدة ، إشراف: حافظ إسماعيل علوي،دار الروافد الثقافية، لبنان، منشورات ابن النديم، الجزائر، ط1، 2013 ، ج2 ، ص 1070 .

[15] ينظر : المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

[16] المرجع نفسه ، ص 1071 .

[17] خليفة بوجادي ، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة، الجزائر، ط1 ، 2009 ، ص 94 .

[18] بوفرومة حكيمة، دراسة الأفعال الكلامية في القرآن الكريم،مقاربة تداولية، مجلة الخطاب، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، ع3 ،2008 ، ص 11 .

[19] المرجع نفسه ، ص 11 .

[20] عمر بلخير ، التناول التداولي للخطاب الأدبي ، مجلة القصّة ، 1999 ، ع 2 ، ص 70 .

[21] ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت، ط1، 2004، ص.324

[22]أحمد بن حنبل ، المسند ، تح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف ، مصر، د.ط ، د.ت، ج 10 ، ص 76 ،77 .

[23] عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب ، ص 485 .

[24] أحمد بن حنبل ، المسند ، ج 5 ، ص 14 ، 15 .

[25] عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب ، ص 388 .

[26] ينظر : المرجع نفسه ، ص 485 .

[27] محمد بن حسن الزير،القصص في الحديث النبوي، دراسة فنية موضوعية، الرياض، ط3 ، 1985 ، ص117 .

[28] البخاري ، صحيح البخاري ، راجعه: إسماعيل عبد الجواد عبد الغني، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ط5، 2012، ج 4 ، ص 139 ، 140 .

[29] عباس محمود عبد الواحد ،قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا النقدي، دراسة مقارنة ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط1 ، 1996 ، ص 120 .

[30]آمنة بلعلى ، الإقناع ،المنهج الأمثل للتواصل والحوار، نماذج من القرآن والحديث، مجلة التراث العربي، ع89 ، محرم 1424،23 مارس 2003 ، ص 208 .

[31] المرجع نفسه ، ص 212 .

[32]أحمد بن حنبل ، المسند ، ج 6 ، ص 334 ، 335 ، 336 .

[33] أحمد بن حنبل ، المسند ، ج 2 ، 510 .

[34] بوفرومة حكيمة ، دراسة الأفعال الكلامية في القرآن الكريم ، ص 17 .

[35] آمنة بلعلى ، المنهج الأمثل للتواصل ، ص 231 .

[36] أحمد بن حنبل ، المسند ، ج 15 ، ص 209 .

[37] آمنة بلعلى ، المنهج الأمثل للتواصل ، ص 201 .

[38] أحمد بن حنبل ، المسند ، ج 6 ، ص 16 ، 19 .

[39] محمد مشعاله ، الاغتراب عند الإمام علي من خلال نهج البلاغة، رسالة دكتوراه، إشراف: عبد القادر دامخي، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2009/ 2010 ، ص 201 .

[40] بوفرومة حكيمة ، دراسة الأفعال الكلامية في القرآن الكريم ، ص 16 .

[41] المرجع نفسه ، ص 16 .

[42] أوستين، نظرية أفعال الكلام، تر:عبد القادر قنيني ، إفريقيا للشرق، المغرب، د.ط ، 1990، ص.137

[43] أحمد بن حنبل ، المسند ، ج5 ، ص 14، 15 .

[44] الترمذي ، سنن الترمذي، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة ، 1937،ج5 ،ص 302 ، 303 .

[45] بوفرومة حكيمة ، دراسة الأفعال الكلامية في القرآن الكريم ، ص 17 .

[46]محمد سعيدي، بناء الإنسان في الفكر الصوفي الإسلامي، مجلة حوليات التراث ،ع1، 2004، ص 116

[47]جلال الدين السيوطي , المزهر في علوم اللغة وأنواعها , تح: محمد أحمد جاد المولى ,دار الفكر , بيروت , ج1 , ص 37 , 38 .

[48]الترمذي ، سنن الترمذي ، ج 4 ، ص 470 .

[49]جلال الدين السيوطي, الإتقان في علوم القرآن ,عالم الكتب , بيروت , دط , دت ,ج2 , ص 344 .

[50] سامية الدريدي ، الحجاج في الشعر ، ص 163

[51] أحمد بن حنبل ، المسند ، ج 2 ، ص 510